الفصل الرابع

نقد وتحليل
لنظريات برنارد لويس

obeikandl.com

obeikandl.com

يمكن دراسة نظريات «برنارد لويس» وتحليلها طبقًا لمجموعة مؤلفاته المتعددة، والمتنوعة، وذلك من خلال أربعة محاور :

١- علم الإسلاميات، آراؤه وأحكامه بشأن الإسلام والقرآن الكريم، والرسول ﷺ .

٢- تاريخ الإسلام .

٣- الحضارة والثقافة الإسلامية .

٤- الاتجاهات الفكرية الفلسفية الكلامية فى الإسلام، وكذلك الاتجاهات الجهادية أو الأصولية الإسلامية .

وفى البداية، علينا أن نتطرق أولاً إلى موقف «برنارد لويس» وموقعه السياسى والاجتماعى ومكانته العلمية والبحثية . يعد «لويس» من المؤرخين والمستشرقين المعاصرين، وبسبب ما كان له من تعاون قديم وخبرة طويلة مع وزارة الخارجية البريطانية فى فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها، وكذلك تعاونه الحالى مع المؤسسات الحكومية الأمريكية، لا يمكن تقويمه على أنه باحث عادى، ولا يمكن تقييم نظرياته على أنها علمية تمامًا، وبعيدة عن الأحكام السياسية المسبقة . وبخاصة أن كتبه ومقالاته وخطبه وأحاديثه خلال العقدين الأخيرين، اتسمت بالغلظة والتعنت واصطبغت بصبغة سياسية واضحة .

لقد قام الدكتور مازن مطبقاتى ببحث مفصل ودقيق تحت عنوان : «الاستشراق والاتجاهات الفكرية فى التاريخ الإسلامى، دراسة تطبيقية على كتابات برنارد لويس» . وقد نشر هذه الدراسة فى كتاب سنة ١٤١٦هـ فى الرياض .

درس «برنارد لويس» (المولود ١٩١٦م) تاريخ الإسلام فى معهد الدراسات الآسيوإفريقية بلندن . ومع بداية الحرب العالمية الثانية التحق بالعمل فى وزارة الخارجية البريطانية، حيث كرس علمه ومعرفته بالإسلام وعلوم الاستشراق لخدمة سياسة الحكومة البريطانية . وخلال الفترة بين عامى ١٩٥٧ ، ١٩٧٤م ترأس قسم تاريخ الشرق الأدنى فى جامعة لندن. وفى عام ١٩٧٣م أصبح رئيسًا للمؤتمر الدولى للمستشرقين. وفى عام ١٩٧٤م هاجر إلى أمريكا، وظل بها إلى أن حصل على الجنسية الأمريكية فى عام ١٩٨٢م، وتقاعد فى عام ١٩٨٨م بعد أن كان قد أسس مؤسسة الدراسات اليهودية والشرق الأدنى (Annenberga) فى عام ١٩٨٦م، وهى المؤسسة البحثية نفسها التى يرأسها الآن ويقوم بإدارتها [١] .

وقد نقل المرحوم الدكتور شرف الدين الخراسانى أن «برنارد لويس» والسيدة «لمبتون» كانا قد قاما بزيارة لإيران قبل انقلاب ٢٨ مرداد ١٣٣٢هـ. ش (أغسطس ١٩٥٣م)، وسقوط حكومة مصدق . وقاما بإعداد تقرير تفصيلى حول إيران فى ذلك الوقت قدماه بالطبع للحكومة البريطانية . ويحتمل أن يكون هذا التقرير قد مثل سندًا ودافعًا وراء القرار بالقيام بهذا الانقلاب الذى أسقط حكومة مصدق! وهذا الرأى بالقطع لا يمكن التسليم بصحته دون بحث فى وثائق الخارجية البريطانية والأمريكية ودراسة هذه الوثائق .

والحقيقة أنه حتى بتعبير «چون إسپوزيتو»، فإن «برنارد لويس» يُعَدّ واحدًا من أهم المستشارين فى الشئون الخارجية فى الكونجرس الأمريكى، بل وأكثر هؤلاء المستشارين خبرة وحنكة. وما هو أوضح من الشمس أن «برنارد لويس» لكونه يهوديًا يُعَدّ كذلك من أكثر المتحمسين للدفاع عن إسرائيل والصهيونية. وقد أشرنا إلى مثال على ذلك فى بداية هذا البحث. فارتباط «برنارد لويس» العاطفى والحماسى لليهودية فى اتجاهها وصبغتها الصهيونية أمر ليس بالخفى . وقد أوضح عبد اللطيف طيباوى فى كتابه «المستشرقون الناطقون بالإنجليزية» أن الأخطاء العلمية والبحثية والنظرية التى وقع فيها «برنارد لويس» كان سببها التزامه الشديد بالصهيونية وانحيازه الواضح لها .

كذلك كتب محمد خير عبد القادر فى نقد الاتجاه البحثى لدى «برنارد لويس»: «يتجاهل «لويس» الحقائق والثوابت الموجودة فى الفكر السياسى الإسلامى،

وخصوصا فيما يتعلق بمفهوم «الحرية السياسية»؛ فهو يعتقد أن هذا المفهوم انتقل من الغرب إلى العالم الإسلامى، حيث ذكر «لويس» هذه النظرية تحت عنوان بحثه حول «الحرية»، و«الحرية السياسية»! والجدير بالاهتمام هنا أن «لويس» يؤيد «حركة تركيا الفتاة» ويبدى تعجبه ودهشته من أن هذه الحركة صارت مقدمة وطليعة لترويج أفكار كمال أتاتورك العلمانية[٢]».

ويمكن القول إن أكثر الأحكام دقة وأكثرها نقدًا بشأن «برنارد لويس»، أوردها إدوارد سعيد فى كتابه المهم «الاستشراق». وإلى جانب هذا الكتاب قام إدوارد سعيد كذلك فى أحاديثه ومقالاته الكثيرة بنقد «برنارد لويس» ونظرياته وآرائه. إن دقة «إدوارد سعيد» ونفاذ بصيرته قد تركزت فى المجال البحثى الذى اهتم به «برنارد لويس» فى غالب أعماله، وهو المجال الذى حاول «لويس» أن يقوم من خلاله بمناورة يستخدم فيها معلوماته فى علم اللغة، هذا المجال كان موضعًا لاهتمام إدوارد سعيد.

وبحسب تعبير «كالينجوود»: فإن إدوارد سعيد هو الذى قام بكشف الأفكار الخفية وراء أبحاث «برنارد لويس» وعباراته التى استخدمها فى هذه الأبحاث. فعلى سبيل المثال نجد «لويس» فى كتابه «المفاهيم الإسلامية للثورة» قام بتحليل الأصل اللغوى لكلمة «ثورة». حيث كتب «كلمة ثورة تعنى النهوض، نهوض الناقة!» فينبه إدوارد سعيد إلى هذه النقطة، ويوضح كيف يريد «برنارد لويس» بهذا التعبير والتفسير أن يفرغ كلمة «الثورة» من قيمتها وهويتها ومحتواها، وبخاصة تلك التى تتعلق بالثورات التى كانت تقوم فى البلدان الإسلامية ضد الاستعمار الإنجليزى والفرنسى[٣].

ثمة مثال آخر نجد فيه إدوارد سعيد يبحث فيما وراء مؤلفات «لويس» وكتاباته، وهو أنه كتب حول نهضة الشعب المصرى وانتفاضاته التى قامت مرة فى عام ١٩٦٤م، ومرة أخرى فى عام ١٩٧٦م، وقد اختلف تحليله فيما كتبه حول هاتين الانتفاضتين عما كتبه حول دعوة الزعماء المصريين للشعب للقيام بمظاهرات فى ٢من نوفمبر عام ١٩٤٥م ضد وعد بلفور، حيث رأى لويس أن هذه المظاهرات انتفاضة معادية للسامية، واستنتج من ذلك أن الإسلام هو فى الأساس عقيدة معادية لليهود ومحاربة لهم. وهنا يرى إدوارد سعيد أن منهج برنارد لويس وأسلوبه ليس إلا نوعًا من المغالطة ولا يرقى لأن يكون عملاً بحثيًا علميًا على الإطلاق[٤].

وقد كتب «شاهد عالم» مقالة جديرة بالقراءة والاهتمام تحت عنوان : «برنارد لويس والاستشراق الجديد»[٥] ، ونجد فى القسم الأول من هذه المقالة والمعنون بـ : «من هو برنارد لويس؟» عدة نقاط جديرة بالتأمل :

فقد وجدنا «شاهد عالم» ينتقد تلك الألقاب التى استخدمت لتلميع «برنارد لويس» والدعوة له والترويج لأفكاره. وهنا يتحتم علينا أن نقر بأن بعض الصحف فى بلادنا أحيانًا ما تقدم على ترجمة بعض مقالات «برنارد لويس» فى سطحية وعجالة، دون معرفة كاملة بالدعايات العالمية المنظمة لصالحه، فتقع فى هذا الشرك نفسه. فالألقاب التى تطلقها الدعايات العالمية على «برنارد لويس» كما يلى :

أ- «شيخ» الدراسات الشرق أوسطية .

ب- «أبو» الدراسات الإسلامية .

ج- أعظم وأقدر باحث فى شئون الشرق الأوسط .

د- «حكيم العصر» .

يشير «شاهد عالم» إلى تلك الألقاب ويقول : «إن هذه الألقاب لتثبت أن «برنارد لويس»- كما يرى الغربيون- قد وضع على رأسه تاج إمبراطورية الاستشراق؛ إلا أن أعماله ومؤلفاته تُعَدّ أعمالاً أيديولوچية بشكل غريب، وتوسعية محضة؛ فهو فى الواقع قضى السنوات الخمسين الأخيرة من عمره كلها فى ترسيخ مشروع: تحقير شأن العرب والإسلام وتكريس عدم اعتبارهم، والتهوين من قيمتهم».

كذلك كتب إدوارد سعيد يقول :

«إن النواة المركزية فى أيديولوچية «برنارد لويس» والتى لم تتغير مطلقًا، ولن تتغير أبدًا، بل هى فى الواقع مهمته الأساسية، هى إبلاغ اليهود، وأى شخص آخر، يقرأ كلامه ويستمع إليه، أن أى نوع من الاتجاهات البحثية والتفسيرات والتحليلات السياسية والتاريخية يجب أن يبدأ وينتهى على أساس أن : المسلمين هم المسلمون!».

«فأعماله ومؤلفاته تمتلئ فى الغالب بالحدس والتخمين والكناية واللمز ومسرحياته العلمية فى أبحاثه ليست إلا غطاءً لأهداف وغايات يريد أن يصل إليها. أما عندما يدلى

obeikandl.com

بحديث تليفزيونى، فإنه يرفع فى حديثه هذا الغطاء ويضع هذا القناع جانبًا، مثلما حدث فى حواره التليفزيونى الذى أجراه معه «تشارلى روز» على شبكة تلفزيون NBC بتاريخ ١٦ من إبريل ٢٠٠٢ م، عندما قال: «إن إبعاد عرفات عن الإرهاب يشبه إبعاد النمر عن حالة الافتراس!».

وعلينا أن ننتبه إلى أن هذا الحوار أذيع فى إبريل ٢٠٠٢م، حيث كان عرفات وسلطة الحكم الذاتى الفلسطينى قد سلكت كل الطرق والحلول السلمية، وبعد كل هذه التنازلات وُوجهوا بسحق دموى لشعب فلسطين. وأصبح واضحًا للجميع أن عصر مظلومية إسرائيل قد انتهى، ذلك العصر الذى كانت إسرائيل تستند فيه دائمًا فى إثبات مظلوميتها إلى التأكيد على رغبة المسلمين فى محاربتها وسحقها، بينما تطالب هى بالسلام.

لقد تنبه «شاهد عالم» بوعى شديد إلى أنه لا يمكن أبدًا الحكم على باحث بمجرد الاستناد إلى كتبه ومؤلفاته فقط. بل إن ما يدلى به الباحث من أحاديث إعلامية وحوارات تليفزيونية ليثبت كذلك مواقفه وحقيقة آرائه ونظرياته بشكل صريح وواضح. وفيما يتعلق بباحث مثل «برنارد لويس» يمكن القول صراحة إن أبحاثه ودراساته التاريخية واللغوية والفلسفية والحضارية كلها، ليست إلا غطاءً لمحاربة الإسلام والمسلمين والحط من شأنهم. وهو بالتأكيد يعمد أحيانًا إلى مدحهم فى مواضع قليلة لكى يسرى تأثير ذلك على الموضع والمكان الذى يريد التأثير فيه حتى يضفى الصدق على نظرياته وآرائه المغرضة. ومثال ذلك فى قوله مرارًا وتكرارًا: «المسلمون فقراء، المسلمون ضعفاء، المسلمون جهلة غير متعلمين». ومثاله أيضًا فى الموضع الذى تنبه إليه إدوارد سعيد: تعريف الثورة بنهوض الناقة[٦]. فمن المؤكد أن ذلك الشخص الذى وضع نفسه موضع الخبير وخدم بخبرته وزارة الخارجية البريطانية وساعدها بتقاريره ودفعها إلى القيام بانقلاب ضد الثورة وضد الوطنية فى إيران، من المؤكد أن موقف ذلك الشخص تجاه جميع حركات اليقظة والوعى فى العالم الإسلامى سيكون موقفًا سلبيًا ومعارضًا.

فى بحث آخر تحت عنوان «برنارد لويس والدراسات الإسلامية» قام بنشره كل من سليمان ناينچ وسمير عبد ربه[٧]، ناقشا خلاله أهداف «لويس» وغاياته وأغراضه

السياسية والجهود المستمرة التى يبذلها فى محاربة الإسلام، وأنه من هذا المنطلق يقوم بدراسة وتحليل قضايا مختلفة، مثل قضية السود فى أمريكا أو العرب فى الشرق الأوسط. حيث يتبسط فى كثير من المسائل والقضايا، ويتجاهل قضايا ومسائل أخرى كثيرة، ويقوم عن عمد بتشويه صورة الإسلام وتحريف تاريخ المسلمين وتشويهه(٨).

مثلما قال فى نظريته المعروفة من أن الإسلام ليس إلا صورة محرفة عن اليهودية. وهذه النظرية قام بنقدها «تى. بى. إيرڤينج» فى مقالة تحت عنوان «اليهود والإسلام»، حيث يرى «إيرڤينج» أن «برنارد لويس» مستشرق لا يبدى اهتمامًا كبيرًا لمعرفة جميع الجوانب الموجودة فى الإسلام. بل إن «إيرڤينج» لديه رأى مُلفت للنظر تجاه «برنارد لويس»، حتى إنه يقول عنه إنه ما جاء إلى أمريكا إلا ومعه ذلك التعصب الإنجليزى، وجاء بمصطلحاته وأدبياته الإنجليزية؛ لكى يقوم بتضليل المجتمع الأمريكى(٩).

وثمة مقالة أخرى مهمة جدًا كتبها «إيرڤينج» تحت عنوان «دفع أمريكا للحرب ضد الإسلام» هذه المقالة كتبها فى عام ١٩٩٠(١٠).

ولكى نتعرف على الأسس الفكرية والتنظيرية لـ «برنارد لويس» وعلى منهجه فى البحث، علينا بالطبع أن نناقش الاستشراق بوصفه ظاهرة. ولحسن الحظ قام إدوارد سعيد بهذه المهمة على أكمل وجه، حيث أقدم فى مؤلفه العظيم «الاستشراق» على تحليل منهج «برنارد لويس» وأفكاره ونظرياته، مما دفع الصهاينة بالقطع إلى القيام بمحاولات وجهود واسعة فى محاربة إدوارد سعيد منذ أن قام بنشر هذا المؤلَّف العظيم.

ومن هذه المحاولات والجهود ما قام به الصهاينة فى المجال الإعلامى ضد إدوارد سعيد، من إغفال وطمس الجانب البحثى والعلمى فى شخصية ومؤلفات إدوارد سعيد الذى يعد فى الواقع واحدًا من أهم علماء العلوم الإنسانية، ومن أعظم نقاد الأدب ونقاد الموسيقى. بينما ركزوا فقط على الجانب السياسى فى بعض مقالاته عن فلسطين. الأمر الذى حدث بالعكس تمامًا فيما يتعلق «ببرنارد لويس» حيث يحاولون إغفال الجانب السياسى فى شخصيته ومؤلفاته ونظرياته! وهو عندهم المفكر العظيم، وحكيم القرن، والعالم الخبير بالإسلام، والعالم منقطع النظير و... إلخ، وهو الذى تُعلق على صدره دائمًا نياشينهم وأوسمتهم اللامعة.

وبناء على هذا، فإنى أترك للقارئ العزيز أن يولى الاهتمام اللازم لمقولة «الاستشراق» على الرغم من أن نظريات «برنارد لويس» وبخاصة تلك التى طرحها فى آخر كتاب له، وهو الذى أشرت إليه فى بداية هذا البحث، هذه النظريات يمكن مناقشتها ودراستها من هذه الزاوية نفسها، أى زاوية الاستشراق التى تعد الأرضية الأساسية فى جميع أعماله ونظرياته. وكما أشرت من قبل، فإن نظرياته وآراءه تجاه الإسلام والمسلمين يمكن مناقشتها وتحليلها من خلال أربعة محاور:

أولاً: المحور الأول حول القرآن الكريم والرسول ﷺ:

فعلى الرغم من أن «برنارد لويس» لم يقم مباشرة وبشكل صريح بأى بحث حول القرآن الكريم، فإنه يمكن التعرف على آرائه وأحكامه بشأن القرآن من خلال أعماله المتعددة. فأول شبهة يطرحها بشأن القرآن، وهى شبهة قديمة بالطبع، هى أن القرآن الكريم نص مقتبس من الكتاب المقدس وخصوصا من التوراة. ففى طرحه لمقولة الوحى المزور الكاذب يقول «برنارد لويس»: إن بعض العلماء السوفيت يقولون بأن القرآن كتب فى عهد الخلفاء، وقطعًا هناك علماء آخرون غربيون يعتقدون أيضًا أن القرآن كتبه شخص ما وليس منزلاً عن طريق الوحى.

وهنا يبدو واضحًا أن «برنارد لويس» يدفع بسياق العبارات والكلمات والجمل بشكل يريد معه أن يثبت أنه حدث للإسلام ولرسوله الكريم وللقرآن الكريم الشىء نفسه الذى حدث بشأن كتابة نصوص الأناجيل فى المسيحية. ويتجلى مطلبه وغرضه هذا فى اهتمامه الشديد بالتدقيق فى اختيار الكلمات والمفردات التى يستعملها فى هذا السياق. فعلى سبيل المثال نجده يستخدم كلمة إملاء (dictate) فيما يتعلق بالقرآن وليس كلمة الوحى (reveal)، هذا على الرغم من أننا نجد فى القرآن الكريم أن كلمة إملاء قد استخدمت فى مواضع بعيدة عن الرسول ﷺ كما فى قوله تعالى فى سورة البقرة الآية ٢٨٢: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ..... وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ أما عندما يتعلق الأمر بالرسول الكريم ﷺ فإن كلمة «الوحى» هى التى تستخدم دائمًا. والقرآن الكريم يمتلئ بالآيات التى تعد مصداقًا لذلك.

كما أننا نجد «برنارد لويس» عندما يتحدث عن جمع القرآن الكريم فى عصر الخلفاء يستخدم لذلك كلمة «تنقيح». ولا يخفى ما يتبادر إلى الذهن من استخدام هذه الكلمة

فى هذا الموضع والتى توحى بأن الآيات القرآنية تعرضت للحذف والإضافة والمحو والإصلاح . و«صفة القداسة» فى الإسلام كانت هى الأخرى دائمًا موضعًا لاهتمام المستشرقين، ومنهم «برنارد لويس» بالطبع : إذ كيف يتأتى لأى مسلم أن يكون على استعداد للتضحية بروحه ؟ والفلسطينى أو الأفغانى أو العراقى الذى يحارب الاحتلال بالتضحية بروحه، أى عقيدة وأى إيمان هذا الذى يشرق فى ذهنه وروحه وحياته ويجعل الموت فى نظره مطلبًا عذبًا وهدفًا نبيلاً ؟

ثمة كتاب لـ «برنارد لويس» باسم «لغة الإسلام السياسية» تمت ترجمته إلى الفارسية وكذلك إلى العربية[١١] . فى هذا الكتاب قام «برنارد لويس» وتحت عنوان «الحرب والسلام» بمناقشة مفهوم القداسة، وتحدث عن عقيدة المسلمين تجاه الأماكن المقدسة . يقول فى هذا الشأن : «إن فكرة تقديس مكان ما أو مساحة من الأرض كانت معروفة من قبل . وهذه الفكرة تعدّ فى الإسلام أمرًا محوريًا، وثمة أماكن مقدسة كثيرة لدى المسلمين . وأقدس هذه الأماكن على الإطلاق هى الكعبة فى مكة، ومرقد رسول الله ﷺ فى المدينة . لكن الكلمات أو المصطلحات التى تطلق عليها، لم تشتق من الجذر «قدَسَ» بل اشتقت من الجذر «حرّم» ومعناه الأصلى «المنع» أو امتلاك الأبهة والحرمة فى معناه التضمينى أو الاصطلاحى»[١٢] .

تحدث «برنارد لويس» فى هذا الموضوع عن تقديس الأماكن والأراضى لدى المسلمين، لكنه لم يشر مطلقًا لا من قريب ولا من بعيد إلى كتاب المسلمين المقدس، أى القرآن الكريم، وقداسة وتقديس هذا الكتاب . والملفت للنظر هنا أن المسيحيين يرون كتابهم الدينى «كتابًا مقدسًا» ويستخدمون كلمة المقدس (Holy) تعبيرًا عنه ؛ بينما بذلت جهود كثيرة لنفى صفة القداسة والتقديس عن القرآن الكريم . فمثلاً كانت المهمة الأساسية والمحورية فى كتاب «آيات شيطانية» الذى ألفه سلمان رشدى هى نفى صفة القداسة عن القرآن الكريم، وهذا واضح تمامًا من الاسم الذى أطلقه سلمان رشدى على كتابه ؛ فهذا الاسم يعنى أنه عندما يكون الشيطان قادرًا على التدخل فى أمر الوحى ويلقى بآيات على لسان الرسول ﷺ، فما الدليل على أن الآيات الأخرى الموجودة فى القرآن الكريم لم تتعرض هى الأخرى لتدخل الشيطان وتأثيره؟ وبهذه النظرية ينفى صفة القداسة عن القرآن الكريم، وأيضًا عن رسول الإسلام ﷺ[١٣] .

إن القرآن الكريم يعد فى الإسلام بمثابة الروح والعمود الفقرى والقلب إذا تعرض لأى ضرر - وهذا لن يحدث أبدًا- فلن يبقى من الإسلام شىء. ولهذا جرت محاولات كثيرة وبذلت جهود واسعة طوال القرون الأخيرة للنيل من القرآن الكريم، وتشويهه وإحاطته بمختلف الشبهات. من ذلك مثلاً ما قام به مونتجمرى وات، الذى تصادف وأن درس سلمان رشدى تاريخ الإسلام على يديه، حيث يناقش مونتجمرى فى كتابه «محمد رسول ورجل دولة» مسألة أمية الرسول ﷺ وعدم معرفته للقراءة والكتابة، وينكر هذه الحقيقة تمامًا، ويعتقد أنه لا يمكن أبدًا قبول فكرة أن تاجرًا شابًا مثل محمد لم يكن على معرفة جيدة بالقراءة والكتابة(١٤).

ثمة مستشرق آخر يدعى تورى (Torrey) يطرح فى كتابه «الأساس اليهودى فى الإسلام» هذه النظرية نفسها، ويرى أن رسول الإسلام كان على معرفة بالقراءة والكتابة(١٥).

ومثل هذه النظريات تثير فى ذهن القارئ تساؤلاً حول السبب فى إطلاق القرآن الكريم صفة «الأمى» على الرسول، وما الذى جعل القرآن الكريم يصرح بوضوح أن الرسول لم يكن له معرفة بالقراءة والكتابة؟(١٦) فللوهلة الأولى ودون الالتفات إلى أمر القداسة، لا يستطيع ذهن الإنسان البسيط أن يقبل أن القرآن الكريم قد كتبه شخص لا يعرف القراءة والكتابة.

من ناحية أخرى نجد مستشرقين أمثال لويس، ووات، وتورى، ونولدكه، وجولدتسهير وغيرهم، يريدون بذر الشكوك والشبهات حول القرآن، بقولهم إن مسألة أمِّية رسول الإسلام، هى أمر مزيف ومكذوب.

وبهذا تتعرض صفة القداسة والوحى لشكوك لا حصر لها، وكذلك شخصية الرسول ﷺ. وفى النهاية فإن المسلم الذى يقع تحت تأثير مثل هذه الشبهات سوف ينتابه الشك فى كتابه المقدس وفى رسوله الكريم، ولن يكون مستعدًا بعد ذلك للتضحية بروحه. فبعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر، تساءل الغرب بإلحاح عن السبب الذى يدفع شبابًا مسلمًا متعلمًا، بعضهم من أسر وعائلات غنية ومعروفة ولديهم من الإمكانات ما يجعلهم يعيشون حياة مفعمة بالرفاهية والمزايا المادية والوظيفية، إلى أن

يقدم على التضحية بروحه طواعية؟ وهو السؤال نفسه الذى يواجهه الغرب اليوم فى العراق وفلسطين وأفغانستان.

وبعبارة أخرى يركز «برنارد لويس» جهوده البحثية على اقتلاع هذه الفكرة وهذا المعتقد من جذوره ونفى صفة القداسة والوحى، حتى يتراجع الشباب المسلم عن التضحية بروحه؛ لأن الشك إذا تمكن من قلب الشاب المسلم وعقله، الشك فى القرآن الكريم والشك فى رسول الله ﷺ، فإن النتيجة الطبيعية لتمكن مثل هذا الشك فى قلبه وعقله هى أنه لن يكون مستعدًا أبدًا للإقدام على التضحية بنفسه، حيث تتغير بذلك رؤيته ونظرته وعقيدته وعالمه كله.

ولكى نفنّد أيضًا شبهة اقتباس القرآن الكريم من الكتاب المقدس، أى التوراة بالتحديد، وكذلك شبهات تعلم الرسول ﷺ القراءة والكتابة؛ يمكننا أن نقارن بدقة تلك القصص التى وردت فى القرآن الكريم بالقصص الواردة فى التوراة، قصة آدم، وقصة إبراهيم وأبنائه، وقصة نوح، وقصة يوسف وغيرها من قصص الأنبياء والقصص الأخرى.

وبالإضافة إلى الشبهات التى ذكرناها آنفًا، طرح «برنارد لويس» شبهة أخرى مفادها أن الرسول ﷺ أخذ أصول أفكاره عن الحنفاء. والحنفاء أو الأحناف هم أولئك الأشخاص الذين لم يعبدوا الأصنام فى الجاهلية ولم يكونوا وثنيين، كما لم يكونوا أيضًا على اعتقاد لا بالمسيحية ولا باليهودية. هذه الشبهة كان «هاملتون جيب» قد طرحها من قبل فى كتابه(١٧).

وللأسف يجب الاعتراف هنا بالتقصير الذى تمثل فى أنه لو قام بعض المفكرين والمؤرخين المسلمين بدراسة مثل هذه الموضوعات وتقصيها، ولو قاموا ببحث مسألة الأحناف وتواجدهم فى الجاهلية كمّا وكيفًا، لما تهيأ المجال أبدًا لطرح مثل هذه الشبهات.

فقد قام الذهبى فى كتابه «السيرة النبوية» ببحث مجمل لأفكار الأحناف وآرائهم. وفى بحثه حول «زيد بن عمرو بن نفيل» ذكر الذهبى معلومات جديرة بالاهتمام حول الأحناف(١٨). والمسألة المهمة هنا هى أن الأساس والمحور الذى بنى عليه الأحناف

عقيدتهم، كان نفى معتقدات الوثنيين والمسيحيين واليهود، وإلا فإننا نجدهم على الوجه الإيجابى، لم يكن لديهم عقيدة محددة . حتى إنهم لم يكونوا على مقدرة للوصول إلى تعريف واضح فى شرح الاعتقاد بوجود الله . وقد تحول بعضهم إلى المسيحية مثل «ورقة بن نوفل» - برواية ابن هشام فى السيرة، كذلك كان «عبد الله بن جحش» من الحنفاء وأسلم وهاجر إلى الحبشة، لكنه فى الحبشة تحول إلى النصرانية . أيضًا نجد «زيد بن عمرو بن نفيل» الذى لم يتحول لا إلى المسيحية ولا إلى اليهودية قد اعترف بأنه لا يزال غير قادر على فهم لماذا يجب أن يُعبد الله(١٩) .

إن هذه النظريات أو الشبهات الثلاث التى أُشير إليها آنفًا؛ أى اقتباس القرآن من التوراة، وتعلم الرسول الكريم القراءة والكتابة، واقتباس الإسلام من عقيدة الحنفاء ومعتقداتهم، قد طرحت كذلك من قبل «برنارد لويس» . فقد كان هدفه الأساسى هو تشويه صفة القدسية والإيمان بالوحى؛ أى الأساس الإلهى والسماوى للقرآن الكريم والدين الإسلامى .

المسألة الأخرى التى يمكن تناولها فى دراسة «برنارد لويس» ونظرته حول القرآن الكريم هى اهتمامه بدراسة التاريخ فى القرآن . فمن المهم جدًا وعلى درجة كبيرة من الأهمية أن ندرك الموضوعات المهمة التى لم يشر إليها مثل هذا الباحث فى بحثه فى التاريخ فى القرآن الكريم وتغافل عنها عمدًا . فعلى سبيل المثال نجد «برنارد لويس» يحصر البحث التاريخى الإسلامى فى القرآن بحياة الرسول محمد ﷺ، وهنا يتضح لنا أنه أغفل كثيرًا من التحولات والتطورات التاريخية المهمة . وكنموذج، من البديهى أن القرآن الكريم قد وصف بدقة وفى آيات كثيرة تلك الظروف والمقتضيات السياسية والاجتماعية والثقافية التى كان يعيشها عرب الجاهلية قبل الإسلام وفى بداية ظهوره، ومن ناحية أخرى ثمة آيات كثيرة فى القرآن الكريم تناولت معتقدات المسيحيين واليهود فى مكة والمدينة بالنقد والمعارضة، كذلك تناول القرآن الكريم مسألة الحرب والمواجهة بين الروم والفرس . هذا بالإضافة إلى ذكر القرآن الكريم لحياة موسى وعيسى وإبراهيم ويوسف عليهم السلام، والتى تناولها القرآن الكريم بتفصيل أكثر مما فصل به حياة الرسول محمد ﷺ .

فحول موضوع القرآن الكريم، نجد استنتاجات «برنارد لويس» للمسائل والقضايا والمقولات الاجتماعية والثقافية التى استند فيها إلى آيات من القرآن الكريم، استنتاجات جديرة بالتأمل . فطبقًا لنتائج أبحاثه، يرى «برنارد لويس» أن القرآن قد اعترف رسميًا بالعصبية القبلية والعنصرية، وبالتفرقة على أساس العرق، واعترف رسميًا بالثأر والقصاص وبنظام العبودية، وأن الإسلام يعترف بالعبودية كنظام اجتماعى ويعلن صراحة أن حقوق السيد لا تتساوى مع حقوق العبد . ففى تحليله لإحدى الحوادث السياسية والاجتماعية فى التاريخ الإسلامى، ونعنى بها قضية مقتل الخليفة الثالث - عثمان بن عفان- كتب «برنارد لويس»: «إن ادعاء معاوية فيما يتعلق بالأخذ بثأر عثمان كان على أساس عادة عربية قديمة وهى العادة التى أيدها القرآن الكريم وأكدها . . .»(٢٠).

ثمة كتب كثيرة أُلِّفت حول موضوع الرق والعبودية فى القرآن الكريم. أما ما لفت انتباهى فيما أشرت إليه من نظرة «برنارد لويس» ورأيه فى هذا الموضوع، فهو هذه النتيجة السياسية والاجتماعية التى خرج بها من تحليله لمطالبة معاوية بالثأر لمقتل عثمان، حيث حلل لويس هذا الثأر والقصاص على أنه أمر قرآنى فى الواقع!

بعبارة أخرى اعتبر «برنارد لويس» هذه المطالبة بالثأر والقصاص، وكذلك نهج معاوية فى هذه المطالبة تطبيقًا للقرآن الكريم واستنادًا إليه.

وهو هنا بالقطع ليس أول مستشرق أو خبير فى شئون الإسلام يقوم بالإشادة بما فعله معاوية، وما قام به من أعمال! فقبله وجدنا «هنرى لامنس» يقوم بتأليف كتاب مستقل عن معاوية بن أبى سفيان، ويشيد فيه كثيرًا بشخصية معاوية، حتى إنه قال : لو علم الغربيون قدر معاوية كما يجب، لأقاموا له تماثيل من ذهب على بوابات أوروبا تقديرًا له. وكان أهم ما قام به معاوية هو تغيير مسار الخلافة فى الإسلام وبين المسلمين وتحويلها إلى ملك عضوض، وملكية إمبراطورية متوارثة، وفى ظل هذا التحول المصيرى ـ وكما يقول أبو الأعلى المودودى فى كتابه «الخلافة والملك» فى الفصل المُعنون بـ «مصير المسلمين» ـ : حدثت تغييرات كثيرة. وقد ناقش هذه التغييرات فى ثمانى نقاط :

١- التغيير فى نهج الوصول إلى الخلافة. فمعاوية كان أول من استخدم السيف للوصول إلى الخلافة.

لقد أثبت معاوية ومن بعده يزيد مبدأ الإجبار فى المبايعة بالخلافة، وجعل الحكم والإمارة والخلافة إرثًا ومُلكًا عضوضا، بعد أن كان اختيار الخليفة وانتخابه ومبايعته فى عهد الخلفاء الراشدين يعتمد على اختيار أصحاب الحل والعقد ورغباتهم، ثم على بيعة الناس. أما فى عهد معاوية ويزيد، وإلى أن ألغى نظام الخلافة فى الدولة العثمانية، فقد صار الوصول إلى السلطة والحكم والخلافة يعتمد على القوة ويتم بالتوارث.

٢- التغيير فى أسلوب الحياة.

٣- التغيير فى أوجه الصرف والإنفاق من بيت مال المسلمين.

٤- انتهاء حرية التعبير عن الرأى.

٥- انتهاء حرية السلطة القضائية واستقلالينها.

٦- انتهاء حكم الشورى.

٧- ظهور العصبيات العرقية والقومية.

٨- اختفاء سيادة القانون.

هذه النقاط أو المواضع الثمانية شرحها أبو الأعلى المودودى بالتفصيل فى كتابه المشهور: «الخلافة والملك فى الإسلام»(٢١).

لقد انتهز «برنارد لويس» الفرصة فى تحليله لمسألة مطالبة معاوية بالثأر لعثمان؛ لكى يثبت سندًا قرآنيًا وقانونيًا لهذا التغيير الذى أشير إليه فى النقطة السابعة! فهل يؤيد الإسلام والقرآن حقًا تلك القيم الجاهلية والنزعات والعادات القبلية الجاهلية ويؤكدها بالفعل؟! ألم يبذل الرسول الكريم ﷺ أقصى جهده عند تنظيمه وقيامه بإنشاء الدولة وبناء الأمة؛ لكى يمحو دعاوى الجاهلية ويقضى لدى المسلمين على تلك القيم والدعاوى والعادات الجاهلية القديمة، أم أنه عمل على تقوية مثل هذه الدعاوى والعادات وتأييدها وتدعيمها؟!

وثمة شبهات كثيرة طرحها «برنارد لويس» حول القرآن الكريم نذكر منها :

ـ التشكيك فى أصالة النص القرآنى :

لقد تبع الباحثون المسيحيون واليهود فى دراساتهم لصحة نصوص الكتاب المقدس ـ التوارة والإنجيل ـ المنهج البحثى نفسه، ووصلوا تقريبًا لنتيجة مشتركة، وهى أن نصوصًا مختلفة ومتباينة للكتاب المقدس ظهرت على مدى القرون التى تلت وفاة موسى عليه السلام وصلب عيسى عليه السلام طبقًا لمعتقداتهم . وقد حاول هؤلاء الباحثون المسيحيون واليهود طرح المعتقد نفسه أو النتيجة نفسها فيما يتعلق بالنص القرآنى . والمثير للانتباه هنا أن «برنارد لويس» ينتقد المسلمين متسائلاً : لماذا لا ينتشر مثل هذا المنهج البحثى بين المسلمين فيما يتعلق بتاريخ القرآن الكريم وأصالة نصوصه .

وقد أورد «برنارد لويس» فى الجزء الأول من كتابه «لغة الإسلام السياسية» توضيحًا لكلمة «الأصولية»، حيث كتب يقول :

«إن الأصولية هى مصطلح مسيحى، ويبدو أنه استخدم فى السنوات الأولى من القرن الأخير [العشرين] ليشير إلى بعض الكنائس والاتجاهات البروتستانتية، وبخاصة تلك التى تعتقد وتؤمن بالأصل السماوى لألفاظ الكتاب المقدس وعدم تعرضها للتحريف، وبناء على هذا فهم يعارضون الفلاسفة الليبراليين والمجددين الذين تكونت لديهم نظرة نقدية وتاريخية للكتاب السماوى. ولا يوجد بين فلاسفة المسلمين ومفكريهم ومتكلميهم مثل هذه النظرة الليبرالية المتحررة والحداثية للقرآن . بل يعتبر المسلمون أصوليين أساسًا فى نظرتهم للنص القرآنى -على الأقل من الناحية النظرية»(٢٢) .

والشبهة الثانية التى نذكرها من شبهات «برنارد لويس» حول القرآن الكريم هى :

- التركيز على بعض المفردات غير العربية فى القرآن الكريم.

وكما أشرت من قبل، فإن اهتمام «برنارد لويس» فى أبحاثه بالمفردات والألفاظ كان إحدى الآليات التى استند إليها فى هذه الأبحاث، حيث اهتم بجذور المفردات والألفاظ وأصولها وما يعادلها ويرادفها ويشبهها فى مختلف اللغات، سواء الشرقية

أو الغربية، ثم نجده يستنتج من هذه التحليلات والدراسات فى عجالة استنتاجًا تاريخيًا أو متعلقًا بتاريخ الإسلام وعلومه وعقائده . وفى مواضع كثيرة من أبحاثه ودراساته لا تتسم تحليلاته هذه ، التى يحلل فيها المفردات والألفاظ تحليلاً لغويًا ، بأى دقة تذكر .

فعلى سبيل المثال نجده فى تحليلاته هذه يرى أن كلمة «أم القرى» مقتبسة ومشتقة من الأصل اليونانى لمعنى الكلمة وهو - metropolis ، وكلمة «الصراط» من الأصل اللاتينى «ستراتا» الذى اشتقت منه كلمة « Street» فى اللغة الإنجليزية و . . . إلخ»(٢٣) .

وبما أنه كان على علم بالأبحاث والدراسات التى قام بها علماء المسلمين قبل قرون حول ألفاظ القرآن الكريم، فهو يعلم تمامًا أن قضية وجود كلمات غير عربية فى القرآن الكريم قضية قديمة، وكنموذج لذلك وجدنا مثلاً جلال الدين السيوطى (٨٤٩-٩١١هـ) فى كتابه «الإتقان فى علوم القرآن» قد أشار إلى مواضع وجود مثل هذه الألفاظ والكلمات فى القرآن الكريم . فعلى سبيل المثال يشير السيوطى إلى كلمة «الصراط» هذه، ويقول : قال النقاش وابن الجوزى إن هذه الكلمة «رومية» الأصل(٢٤) . هذا بالإضافة إلى أن السيوطى درس أيضًا الأصول العربية والقبطية والسريانية والفارسية لأكثر من مائة كلمة أخرى وردت فى القرآن الكريم . واستطاع فى النهاية أن يحصر هذه الكلمات فى أحد عشر بيتًا من الشعر أوردها من نظمه هو ومنها هذا البيت :

ثم الصراط ودرى بجور ومر جان ويم مع القنطار مذكور(٢٥)

هذا فضلاً عن أن السيوطى لم تخف عليه أيضًا تلك الكلمات والمفردات الخاصة بمختلف القبائل العربية؛ وهى القبائل التى كانت تتحدث وقت نزول القرآن بلهجة غير اللهجة الحجازية . وليس المقصود هنا لسان آخر غير العربية، بل المقصود تلك المفردات والكلمات والألفاظ التى لم تكن مستعملة فى اللهجة الحجازية، ولم تكن مفهومة فى لغة الحجاز، وكان أهل اليمن مثلاً يفهمونها ويعرفونها ويستخدمونها فى لغتهم؛ حيث ينقل أبو عبيد عن الحسن قوله : نحن لم نكن نعرف معنى كلمة ﴿الأرائك﴾ التى وردت فى الآية ٣١ من سورة الكهف، حتى أوضح لنا معناها شخص من أهل اليمن، وقال : إنهم يطلقون على «المقعد الوثير» اسم «الأريكة»(٢٦) .

فهل يمكننا أن ننكر وجود التبادل والاقتباس بين اللغات بعضها وبعض من أساسه؟ أم أننا بمجرد أن نجد نماذج من كلمات لغة ما موجودة فى لغة أخرى نخلص من ذلك بنتيجة غير منطقية ؟

أما فيما يتعلق بدراسات «لويس» وأبحاثه حول الأحاديث النبوية فيكفى أن نتحدث عن منهجه .

- منهج برنارد لويس فى أبحاثه حول أحاديث الرسول الكريم

فيما يتعلق بالبحث فى أحاديث الرسول ﷺ ودراستها اتبع «برنارد لويس» نفس المنهج القائم على بذر بذور الشك والشبهات الذى اتبعه فى دراساته حول الآيات القرآنية، والذى أشرنا إلى نقاط منه .

أ- فقد اختلط مفهوم السنة، بمعنى العادات والتقاليد القديمة، مع مفهوم السنة كمصطلح أطلق على السنة النبوية فى فكر «لويس» وأحكامه التى أصدرها بشأن سنة الرسول الكريم ﷺ ، وهذا ما فعله من قبله جولدتسيهر أيضًا . فقد اعتقد كلاهما أن مصطلح السنة النبوية ما هو إلا استمرار للسنن القبلية والجاهلية العربية قبل الإسلام!

بينما نجد سنة الرسول ﷺ تقف على النقيض تمامًا من أكثر سنن العرب وعاداتهم الجاهلية . فها هو ذا الرسول الكريم ﷺ ينادى مثلاً باحترام خاص وصون كريم «للنساء والفتيات» وهذا بعينه يعد نقيضًا ومنافيًا لعادة العرب فى الجاهلية بوأد البنات . وها هو ذا الرسول الكريم ﷺ يعارض ويكافح قيم العصبية القبلية والعنصرية وينادى بالتقوى ويعرفها على أنها مقياس الأفضلية وملاك ومعيار التفاضل بين الناس ومرجعيته . وعلى هذا الأساس قام ﷺ بـ«المؤاخاة» بين المهاجرين والأنصار، وهذا فى حد ذاته أيضًا يناقض سنن الجاهلية تمامًا . ويمكننا مقارنة الخصائص التى تميزت بها سنن العرب فى الجاهلية بتلك الخصائص والسمات التى تميزت بها سنة الرسول ﷺ فى مختلف المجالات والاتجاهات حتى ندرك فى النهاية ذلك الاختلاف البين والتناقض الشديد بين سنن العرب فى الجاهلية وسنة الرسول الكريم ﷺ (٢٧) .

ب ـ إن آراء «لويس» وأحكامه فى دراساته وأبحاثه حول الأحاديث النبوية وتدوينها، ونقدها ليثبت بوضوح أنه على جهل شديد بالتطور الذى وصلت إليه علوم الحديث النبوى، أى علم الرجال والجرح والتعديل وعلم الرواية والدراية، ومن منطلق جهله بهذه العلوم حاول متبعًا فى ذلك كثيرًا من نظريات جولدتسيهر وآرائه، حاول أن يقوم بالتشكيك فى الأحاديث النبوية وطريقة تدوينها ونقدها . من الطبيعى أن يوجد بالفعل بين مئات الآلاف من الروايات التى دُوِّنت فى كتب الحديث ما يمكن أن يكون موضعًا للنقد والتجريح، أو يكون مثالاً للأحاديث الموضوعة . والمسألة المهمة هنا هى أن مثل هذه الأحاديث الموضوعة مثلت أحيانًا لدى «لويس» القاعدة والأساس الذى بنى عليه أحكامه ونظرياته . كذلك الحكم الذى أصدره بضرورة إعمال «الحذر والتحفظ والحيطة» بشأن جميع الأحاديث النبوية . ومن عجب أن «برنارد لويس» بمجرد أن يجد حديثًا يحمل أقل توافق أو مواءمة أو تأكيد لآرائه ومعتقداته نجده يقبل هذا الحديث ويقر بصحته دون أدنى تحفظ ودون أن يجد فيه سبيلاً لأى نوع من الشك؛ مثل الحديث الذى ورد فيه أن الرسول ﷺ قام بإعفاء يهود خيبر من دفع الجزية . وهذا الحديث مأخوذ فى عنعنته عن معاوية بن أبى سفيان وسعد بن معاذ، وقد اتفق أن هذا الحديث يمكن رده من ثلاث زوايا :

١ - أن معاوية بن أبى سفيان لم يدخل الإسلام قبل فتح مكة، بينما حدثت قضية يهود خيبر قبل الفتح . ولا يمكن بالضرورة لمعاوية أن يكون شاهدًا على هذا الحديث، بل إنه لم يكن موجودًا فى المدينة فى أثناء فتح خيبر!

٢ - أن سعد بن معاذ قد توفاه الله قبل فتح خيبر، وكان ذلك فى أثناء غزوة بنى قريظة، ومن هنا لا يمكن لسعد بن معاذ أن يكون شاهدًا على واقعة حدثت بعد وفاته !

٣ - أن أخذ الجزية مسألة طُرحت أساسًا فى السنة التاسعة من الهجرة بعد غزوة تبوك، بينما حدثت واقعة خيبر فى السنة الثامنة من الهجرة فى وقت لم تكن مسألة الجزية قد طرحت فيه بعد على الإطلاق .

وأخيرًا نجد «برنارد لويس» قد أغفل المسألة الأكثر أهمية فى الحكم على صحة الحديث من عدمه، وهى المعيار الذى يقيس به المسلمون فهمهم لأى حديث نبوى شريف، وهذا المعيار هو عدم مغايرة الحديث النبوى لنص القرآن الكريم، فلويس لا

يشير مطلقًا لا من قريب ولا من بعيد لهذا المبدأ الأساسى والمعيار الأصيل فى الحكم على الأحاديث النبوية الشريفة .

فعلى سبيل المثال، نجد اليهود والمسيحيين يواجهون صعوبة شديدة فى الحكم على مختلف المقولات المنقولة عن حياة المسيح أو حياة موسى عليهما السلام وفى تطابق هذه المقولات مع الكتاب المقدس . والسبب فى ذلك أنه لا يوجد بين أيديهم نص قطعى وثابت للكتاب المقدس . فالتوراة مثلاً يوجد لها نصوص متعددة، وبلغات مختلفة، ويختلف بعضها عن بعض فى المعنى والمبنى، كذلك الإنجيل توجد له نصوص عديدة مختلفة ومتباينة . أما القرآن الكريم فهو وحده الذى يتميز بهذا التوحد والتفرد؛ لكونه نصًا واحدًا ثابتًا على الدوام ولدى جميع المسلمين، وهذا النص هو المعيار الأساسى لمعرفة صحة الأحاديث النبوية الشريفة والذى يقاس عليه أى حديث نبوى شريف .

ثانيًا : المحور الثانى الذى حاول «برنارد لويس» من خلاله طرح ما أراد طرحه من شبهات وشكوك هو تاريخ الإسلام، وبخاصة حياة الرسول الكريم ﷺ، وهذا المجال يجرى العمل فيه الآن على قدم وساق من قبل تلامذة «برنارد لويس» فى مختلف أقسام التاريخ فى الجامعات الشهيرة الأمريكية والأوروبية ، حيث ألف كثير من الكتب، وكتب كثير من المقالات والطبعات حول هذا الموضوع .

ومن البديهى أنه حينما يترافق التشكيك وإثارة الشبهات حول القرآن الكريم، والتشكيك فى أصالة الأحاديث النبوية الشريفة وصحتها، مع التشكيك فى شأن حياة الرسول الكريم ﷺ تتكون من ذلك منظومة متكاملة تدعم عناصرها وأجزاؤها بعضها بعضًا . وعندما تتشكل هذه القاعدة أو الأرضية، يبدأ التشكيك فى مفاهيم وموضوعات أخرى سوف أشير إلى نماذج منها؛ مثل «الجهاد فى الإسلام»، أو «الحضارة الإسلامية» .

ففيما يتعلق بحياة الرسول ﷺ، ميلاده وفترة حياته فى مكة، دأب «برنارد لويس» على إثارة كثير من الشكوك فى كل موضوع أو حدث يتعلق بها، فأخذ يحيطها بكثير من علامات الاستفهام . فعلى سبيل المثال يقول «لويس»: ولد الرسول ﷺ بين سنتى ٥٧٠، ٥٨٠ فى بنى هاشم من قبيلة قريش، وهؤلاء لم يكونوا من الطبقة

الحاكمة. وحول نسب الرسول ﷺ يقول: «ليس بين أيدينا سوى معلومات قليلة حول نسب الرسول ﷺ كذلك طفولته ليس لدينا حولها إلا معلومات محدودة فقط. ويحتمل أنه كان يتيمًا، ونشأ وترعرع فى رعاية جده لأبيه!». وحول اشتغال الرسول ﷺ فى شبابه بالتجارة يقول: «هذا الأمر احتمالى وليس قطعيًا، ولا يمكن التسليم به».

والمسألة التى يجب أن نلتفت إليها هنا هى أن المصادر التى بين أيدينا قدمت لنا لحسن الحظ تسجيلاً وافيًا لحياة الرسول ﷺ، وهذا التسجيل يتسم بوضوح وتفصيل أكثر بكثير عما تعلق بحياة باقى الأنبياء عليهم السلام جميعًا:

(أ) من الناحية الزمنية فإن زمن الرسول الكريم ﷺ هو الأقرب إلى زماننا عن زمن المسيح وزمن موسى عليهما السلام.

(ب) أن تفاصيل حياة الرسول ﷺ قد تم تسجيلها بدقة متناهية.

(جـ)، وبسبب وجود أقليات يهودية ومسيحية فى عهد الرسول ﷺ ظهرت فى عهده وحياته شبهات من قبيل تلك الشبهات التى يقول بها «برنارد لويس»، فإننا نستطيع أن نتلمس آثار تلك الشبهات فيما سجل عن حياة الرسول ﷺ من تفاصيل. وهذه الشبهات هى نفسها التى طرحها قبل «برنارد لويس»، مستشرقون آخرون مثل «هاميلتون جيب» فى كتابه المشهور «Mohammadanism». والمسألة المهمة التى تبدو كهدف وغاية من طرح مثل هذه الشبهات هى أنه فى حالة اعتبار سنة ميلاد الرسول ﷺ كانت سنة ٥٨٠م، فإن هذا الاعتبار يتحتم معه بالضرورة أن تكون بعثته ﷺ قد حدثت وهو لا يزال فى الثلاثين من عمره، وإذا كان التاريخ الإسلامى يقر بأن بعثته ﷺ قد حدثت وهو فى الأربعين من عمره تكون الشبهة قد طالت فترة حياته ﷺ فى مكة، وهجرته إلى المدينة، وتستمر بذلك حلقات الشبهات والتشكيك لتوصل إحداها إلى الأخرى حتى نهاية حياته ﷺ، وخصوصا عندما تكون الشبهة بشأن العام الذى ولد فيه صلوات الله وسلامه عليه ـ والذى لا يوجد أدنى شك فى أنه كان عام الفيل وهو الموافق لسنة ٥٧٠ أو ٥٧١ ميلادية.

ولذلك نجد «برنارد لويس» ينسحب بهذه الشبهة لينتقل بها إلى تفصيلات أخرى من حياة الرسول ﷺ .

والملفت للنظر أن «هنرى لامنس» ـ على سبيل المثال ـ يطرح هذا التشكيك نفسه وهذه الشبهةنفسها فى سنة ميلاد الرسول ﷺ ، وبعد طرحه هذا يقول : إن بعثة رسول الإسلام ﷺ قبل بلوغه الأربعين هى موضع شك وشبهة! لأن الأنبياء عادة تتم بعثتهم وهم فى سن الأربعين . ولاشك فى أن هنرى لامنس ينسى هنا، على فرض صحة شبهته هذه، ينسى أن المسيح طبقًا لمعتقده هو وطبقًا لرواية العهد الجديد قد تم صلبه قبل بلوغه سن الأربعين، مما يعنى أن فترة نبوته كلها كانت قبل سن الأربعين . ولأن كل هذه القضايا والمسائل والموضوعات أى تاريخ ميلاد الرسول ﷺ ، وطفولته ونسبه، وشبابه، وتجارته وغيرها من المسائل المتعلقة بحياته ﷺ قد ذكرت بوضوح وبتفصيل شديد فى كتب السيرة، فما من ضرورة لبحث ومناقشة مثل هذه المسائل والقضايا والموضوعات .

وما نريده فقط هو أن نبين هدف «برنارد لويس» وغايته من طرحه لمثل هذه الشبهات . وإلا لكان طبيعيًا أن نفرد للرد على كل شبهة منها بحثًا مستقلاً تستحقه وهذا فى حد ذاته من السهولة بمكان . فهدفى هو فضح الغاية التى يهدف إليها «برنارد لويس» فى أبحاثه ودراساته التى يقوم بها حول الإسلام . ومن هذا المنطلق فإنى أطرح شبهاته هنا كسبيل لمعرفة فكره وآرائه . فضلاً عن أن الرد على أغلب هذه الشبهات قد ورد بشكل مباشر ومحدد ومقنع فى كتاب «الاستشراق والاتجاهات الفكرية» .

المسألة الأخرى التى طرحها «برنارد لويس» فى موضوع تأسيس الدين الإسلامى هى أنه أظهر الرسول ﷺ وكأنه لم يكن مطلقًا بصدد الإقدام على تأسيس دين جديد، بل كان يريد فقط أن يكون له كتاب باللغة العربية كوحى منزل؛ لأن الأمم الأخرى كان لها مثل هذه الكتب طوال التاريخ![٢٨] . فـ«لويس» يشير إلى أن هجرة الرسول من مكة لم تكن أيضًا أمرًا استثنائيًا أو خارقًا للعادة حتى تواجه بالرفض والمنع من جانب قريش وأهل مكة، بل لأنهم كانوا يتصورون أن الرسول كان فى هجرته هذه يحاول الهروب من عدالتهم وقانونهم ومجتمعهم! ومن ناحية أخرى يعتقد «لويس» أن التحول إلى الإسلام والدخول فيه قد انتشر بين الفقراء من أهل مكة، ومن هذا المنطلق

لم يكن أغنياء مكة فى قلق من دعوة الرسول إلى الإسلام، لكن قلقهم كان فقط على كيانهم الاقتصادى المهدد بهذه الدعوة . فقد كان كفار قريش يعتقدون أنه فى حالة انتشار الإسلام ورواجه فى مكة، فسوف يتحول ضعف الفقراء والأسر الفقيرة إلى قوة تستند إلى هذا الدين، ومن الممكن أن يؤثروا بقوتهم هذه على الكيان الاقتصادى فى مكة والكعبة. والجدير بالذكر هنا أن هذا البعد نفسه، ونعنى به الاهتمام بالناحية الاقتصادية فى دعوة الرسول ﷺ، قد لاقى اهتمامًا شديدًا من قبل المستشرقين ذوى التوجه المادى والماركسى، وخصوصا المستشرقين الروس فى العهد السوفييتى، حيث طرحوا هذه النظرية ودرسوها بشكل أكثر تفصيلاً ومنهم «بتروشفسكى» وكذلك «بلياف».

إلا أن «برنارد لويس» قام بطرح هذا التحليل الاقتصادى والاجتماعى حول ظهور الإسلام ودعوة الرسول ﷺ فى مكة والمدينة بشكل مغاير وبصورة أخرى. حيث يرى أن المهاجرين الذين قدموا من مكة كانوا قد فقدوا إمكانيتهم المادية والاقتصادية، وعندما قدموا إلى المدينة اضطروا إلى القيام بالإغارة على أموال الآخرين من سكان المدينة ونهبها! وكأنه نسى أنه أقر فى تحليله هذا للفترة المكية من عهد الرسالة، بأن فقراء مكة فقط هم الذين أسلموا مع رسول الله ﷺ (٢٩).

ثالثا : المحور الثالث الذى اهتم به «برنارد لويس» فى دراساته وبحوثه حول الإسلام هو الحضارة والثقافة الإسلامية . فكما أشرت من قبل إلى أن لويس قام من خلال مجموعة مؤلفاته ودراساته التى ظهرت حتى الآن خلال فترة زمنية امتدت لحوالى ٦٠ سنة (نشر أول كتاب له حول فدائيى الإسماعيلية فى سنة ١٩٤٠م)(*) قام بوضع آرائه ونظرياته وأحكامه المتنوعة تجاه الحضارة والثقافة الإسلامية . وهناك عدة قضايا ومسائل محورية جديرة بالانتباه فى هذه النظريات والأحكام :

١- أن «برنارد لويس» بتأكيده الدائم والمتكرر على البعد العسكرى والجهادى فى الإسلام، حاول أن يضع حدًا فاصلاً بين الإسلام كدين والحضارة والثقافة الإسلامية .

(*) يعنى به كتاب «أصول الإسماعيلية» (The Origins of Ismailism)، وقد قام بترجمته إلى العربية كل من خليل أحمد جلو وجاسم الرجب، ونشر بمصر سنة ١٩٤٧م.

٢- **أن «برنارد لويس»** بتأكيده الدائم على دور المسيحيين واليهود فى الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية، حاول أن يقلل من قيمة المسلمين ودورهم فى تأسيس الحضارة والثقافة الإسلامية . بل إن اهتمامه وتأكيده وتركيزه الدائم والمستمر، انصب فقط على دور اليهود فى هذه الحضارة، وهو الدور الذى يعد أحد المحاور التى تدور عليها أبحاثه ودراساته، وقد وضع بالفعل كتبًا مستقلة حول هذا الموضوع(٣٠) .

رابعًا: المحور الرابع الذى يمكننا من خلاله أن نقوم بدراسة نظريات «برنارد لويس» وتحليلها، هو اهتمامه بالاتجاهات الفكرية والمذهبية ومقولات الفرق الإسلامية المختلفة فى العالم الإسلامى. فبدءًا من توجهه إلى دراسة فرقة الإسماعيلية وفدائييها، وهو التوجه الذى تمثل فى كتابه الذى نشر منذ أكثر من ستين عامًا، وحتى الاتجاه الأصولى الإسلامى فى أيامنا هذه، فإن البحث فى مثل هذه الاتجاهات يعد موضوعًا حظى باهتمام شديد من قبل «برنارد لويس»، فبدا وكأن طرحه لمثل هذه الاتجاهات والفرق والأفكار ودراستها يساعده على إثبات نظريته بشأن الإسلام من جهة كونه دينًا ذا توجه عسكرى وجهادى واضح وبارز ما ظهر وتجلى إلا فى مثل هذه الاتجاهات والأفكار .

ومن هذا المنطلق يمكن القول بأن أحداث الحادى عشر من سبتمبر مثلت فى الواقع لحظة كشف النقاب عن شىء ما كان يختفى داخل نفوس الباحثين والمستشرقين والعلماء من أمثال« برنارد لويس». فعلى الرغم من أنه فى مقدمة كتابه «What Went Wrong» التى كتبها فى ١٥ من أكتوبر سنة ٢٠٠١م، يشير إلى أن هذا الكتاب قد تم تأليفه قبل الأحداث الإرهابية التى وقعت فى الحادى عشر من سبتمبر . إلا أنه فى الواقع لم يرغب فى أن يناقش فى هذا الكتاب تلك الأسباب الفعلية التى كانت سببًا لوقوع مثل هذه الأحداث، ومن الممكن أن تؤدى كذلك إلى حوادث مثلها فيما بعد . بل ركز اهتمامه كله على الأرضية السياسية - الاجتماعية والفكرية التى تتشكل على أساسها أحداث من هذا القبيل .

ويمكن القول بأن هذا الكتاب يحوى زبدة جميع المؤلفات والدراسات والكتب التى ألفها «برنارد لويس» ويمثل خلاصة آرائه ورؤاه بشأن الإسلام والمسلمين والاتجاهات الفكرية المعاصرة فى العالم الإسلامى. ونظرًا لمكانة هذا الكتاب بين مؤلفاته، يمكننا أن نَعُدَّه الرؤية المعبرة والواضحة التى تمثل رؤى وأفكار جميع الباحثين والنخب الغربية التى تنتمى إلى حوزة «برنارد لويس» وتدور فى فلك أفكاره ونظرياته ورؤاه.

هذه المحاور الأربعة التى تحدثت عنها فى الصفحات السابقة، والتى تم اختيارها فى الغالب من كتب «برنارد لويس» ومؤلفاته ودراساته الشهيرة حول الإسلام وعلاقته بالغرب، ما هى إلا مقدمة منطقية لفهم نظريات «لويس» وآرائه وأفكاره، وإدراك كنهها ومغزاها. فقبل هذا الكتاب الأخير نشر «برنارد لويس» كتابا آخر تحت عنوان «الإسلام والغرب»(٣١)، وقد أورد فى الفصل الثامن منه مقالة مهمة تحت عنوان «عودة الإسلام» سوف نخصص لها دراسة مستقلة فيما بعد.

أما الكتاب الثالث الذى يحظى بأهمية فى دراسة آراء «برنارد لويس» وأحكامه ونظرياته فهو كتابه «أزمة الإسلام». ففى الواقع يمكننا معرفة أصول نظريات «برنارد لويس» وأحكامه وآرائه من خلال دراسة هذه الكتب الثلاثة وتحليلها.

وثمة مسألة بارزة وجديرة بالتأمل فى تلك المحاور الأربعة التى قام بدراستها وبحثها فى مؤلفاته حول الإسلام والمسلمين، هذه المسألة تتمثل فى أن كثيراً من هذه القضايا والموضوعات والشبهات ليست بجديدة على الإطلاق؛ فطوال القرون الأخيرة، قام مستشرقون وخبراء غربيون فى الشئون والدراسات الإسلامية بطرح مثل هذه القضايا والموضوعات والشبهات. ومن عجب أنه طوال القرن الأخير، وبالأخص فى النصف الثانى منه، والتحول إلى الإسلام والتمسك به يتأكد ويزداد بين المسلمين سنة بعد أخرى، حيث يتزايد إحساسهم بالقضايا والمشكلات التى يعانى منها العالم الإسلامى وتفاعلهم معها؛ وبحسب تعبير جلال الدين الرومى الذى قال ما ترجمته:

ـ وعدت ألطاف الحق تبارك وتعالى النبىّ المصطفى قائلة: إذا مت أنت، فإن هذا الدين لن يموت أبدًا.

– ولسوف أزيد فى رونقك وبهائك يومًا بعد يوم ولسوف أضرب اسمك على السكّة فضة كانت أو ذهبا.

– ولسوف يذكر اسمك خفية من الرعب، وإذا ما صلّوا، تخفّوا للصلاة.

– ولسوف نحفظ هذا الدين ونبقيه حتى قيام الساعة، فلا تخف من نسخ هذا الدين يا مصطفى.

هذا على الرغم من تلك المصائب والبلايا والصدمات والنكبات الكثيرة التى ألمت بالإسلام، وتعرض لها المسلمون، والتى ما زلنا نشاهدها فى عصرنا هذا، حيث تحولت فلسطين وأفغانستان والعراق إلى ساحات للمواجهة بين المسلمين والغرب، وأدى وجود القوات الأمريكية والبريطانية وحلفائهما فى المنطقة وخصوصا فى العراق إلى انعدام الأمن وازدياد انتشار الفقر والبطالة والخراب والدمار . ولم يعد الساسة الأمريكيون والبريطانيون يتحدثون عن رغبتهم فى إعادة بناء العراق وإقامة حكومة ديمقراطية شعبية وطنية فيه ليكون نموذجًا يحتذى به فى دول المنطقة، بل على العكس شاهدنا حتى الآن مدى عدم تحملهم حتى لتلك المظاهرات السلمية التى قام بها الشعب، حيث قاموا مرارًا بقصف الجموع المعترضة التى ضاقت أمامها جميع السبل. فالجهود والمحاولات التى يبذلها الغرب والباحثون والمستشرقون الغربيون ومنهم «برنارد لويس» تركز على إلحاق هذه الصيحات الاعتراضية والمقاومة الشعبية بزمرة الجماعات المتطرفة، ومن ثم بتنظيم «القاعدة» . بينما نعلم جميعًا أن عمليات المقاومة والكفاح ضد الاحتلال كانت طوال التاريخ موجودة فى منطقتنا، وكذلك فى جميع أنحاء العالم، مثل ثورة الشعب الجزائرى ضد الاحتلال الفرنسى، ومقاومة شعب ڤيتنام ضد المحتلين الأمريكيين، وكفاح شعب أفغانستان ومقاومته ضد احتلال الجيش السوڤييتى، وكانت هذه الثورات وهذا النضال والكفاح يحظى لديهم بكل تشجيع واستحسان وقبول، بينما من الناحية الأخرى نجد أولئك الذين تحالفوا مع المحتلين وأيدوهم قد فقدوا بين أهليهم وشعوبهم أى اعتبار من الناحية الشعبية والوطنية .

إن ما أدى إلى ابتعاد المسلمين وانفصالهم عن تلك المميزات التى كانت تميزهم خلال عصرهم الذهبى فى صنع الحضارة والثقافة، ووصل بنا إلى أن نشاهد هذه الدرجة من الركود والتخلف المنتشر بين المسلمين، يتمثل من ناحية فى تلك الحكومات الاستبدادية والديكتاتورية التى لم تترك أى مجال ولا أى فرصة لشعوبها لكى تنمو وترتقى وتتقدم، ومن ناحية أخرى يتمثل فى قيام مثل تلك الحكومات بمغامرات إقليمية وعالمية غامضة لا طائل من ورائها .

خلال إحدى المظاهرات التى قام بها أهالى مدينة الكوت العراقية أمام مبنى المحافظة صاح شاب يهتف فى حرقة : «تحملنا خمسة وثلاثين عامًا من استبداد صدام والبعثيين،

تعرضنا للسحق والسحل. أين ذهبت ثرواتنا؟ أين ذهب بترول العراق؟ لماذا نعانى الآن من البطالة ؟».

إن العراق الذى كان من الممكن أن يكون من أكثر دول المنطقة تقدمًا ورقيًا، قد تحول بسبب جهل صدام وجنونه إلى خراب تجثم عليه الأزمات والبلايا والمصائب. لم يذهب هباءً ما فعله «برنارد لويس» من إبداء سعادته لتلك الحروب التى دارت بين إيران الصفوية والعثمانيين. فعندما قام بدراسة تاريخ الصراع الصفوى العثمانى كتب حول موضوع انعقاد معاهدة بين إيران والعالم المسيحى ضد العثمانيين يقول: «كانت هذه المعاهدة ذات نتيجة محدودة». ولهذا نجده يظهر تعجبه ودهشته مما حدث فى سنة ١٥٢٣م من قيام الشاه إسماعيل الصفوى بعد تعرضه للهزيمة على أيدى العثمانيين بكتابة رسالة إلى الإمبراطور تشارلز الخامس يسأله فيها متعجبًا: لماذا تتحارب الدول والبلدان الأوروبية ويعادى بعضها بعضًا بدلاً من محاربة العثمانيين؟!

يقول لويس: «هذه الرسالة التى بعث بها الشاه إسماعيل الصفوى إلى الإمبراطور تشارلز الخامس، ووُجهت بالصمت ولم تجد أذنًا صاغية، حتى إن الإمبراطور لم يكلف نفسه عناء الرد عليها، ولم يبعث بأى رد لها إلى الشاه إسماعيل الصفوى! «وعندما جاء الرد على هذه الرسالة فى سنة ١٥٢٩م كان الشاه إسماعيل الصفوى قد مضى على موته خمسة أعوام»(٣٢).

وهذا يشبه تمامًا ذلك الإحساس بالقلق الذى ينتاب بعض الساسة المسلمين الذين يعتقدون بأنه إذا وقع خلاف بين أمريكا وأوروبا فإن استقرار المنطقة وحكومتهم وسلطتهم سوف تتعرض للخطر. هذه المسألة أشار إليها راجيف غاندى رئيس وزراء الهند الأسبق. فخلال الفترة التى لم يكن فيها رئيسًا للوزراء وكان يرأس حينذاك حزب المؤتمر الهندى قام بزيارة إيران، وقد تزامنت هذه الزيارة مع احتلال العراق للكويت، وكانت أمريكا بصدد الإعداد والتجهيز للقيام بحملتها الأولى على العراق، قال راجيف غاندى: «إن الاستراتيجية الأمريكية فى المنطقة تتثمل فى:

أ- خلق حالة دائمة من عدم الاستقرار فى كل دولة وقُطْر.

ب- خلق حالة دائمة من التوتر والصراع فى العلاقات الثنائية والعلاقات المتعددة بين دول المنطقة.

ما الهدف من طرح قضايا الفرق والاتجاهات الفكرية والمذهبية وطرح قضية السنة والشيعة فى العراق وأفغانستان وباكستان؟ ومن المخططون وراء إثارة مثل هذه القضايا التى تدفع المسلمين السنة والشيعة لأن يقتل بعضهم بعضًا، وأحيانًا وبكل أسف فى أثناء أدائهم الصلاة ؟ وأى يد خفية تندس بين كل جماعة وفرقة لتدعو إلى تكفير الفرق والجماعات الأخرى، ووصمها بالخروج عن الإسلام؟ لقد حاولت أمريكا والغرب أن تبذر بذور الخلاف والفُرْقة والعداء والصراع بين المسلمين على المستوى الاجتماعى والشعبى، وكذلك على مستوى العلماء والفقهاء، وأيضًا بين الحكومات . وعملت على أن ينمو هذا الخلاف والعداء والصراع كالسرطان أو كالفطر ليقضى على أى تضامن أو وحدة أو تماسك أو تآزر بين المسلمين .

مثل هذه الفرقة وهذا العداء والصراع، دائمًا ما كانت قائمة بين المسلمين، وهى التى أطمعت فيهم الغرب، ودفعته أحيانًا لأن يقوم بمساندة طرف فى هذا العداء والصراع ضد الطرف الآخر، مثلما حدث فى دعمه ومساندته الشاملة السياسية والاقتصادية والعسكرية والإعلامية لحكومة صدام فى حربها ضد الثورة الإسلامية الإيرانية؛ ومثلما حدث من قبل عندما قام الغرب بإرسال المستشارين العسكريين وصناع الأسلحة إلى إيران فى عهد الشاه عباس فى العصر الصفوى، حيث قدم الأخوان شارلى الإنجليزيان؛ لكى يقوما بشحذ سيف الشاه عباس فى حروبه ضد العثمانيين . وكان الشاه عباس هو أيضًا يقوم بإرسال رسائل الود وخطابات الصداقة والمحبة، وطلب تأييد البابا وحكام أوروبا وملوكها مثل ملكة إنجلترا ودوق البندقية .

فقد روى لنا التاريخ أن «أنطون شارلى» الذى كان فى بلاط الشاه عباس منذ عام ١٠٠٧هـ. كُلِّف من قبل الشاه عباس فى سنة ١٠٠٨هـ (١٥٩٩م) بأن يذهب فى سفارة إلى العواصم الأوروبية لدعوة الملوك والحكام المسيحيين لتشكيل حلف واتحاد مع إيران ضد العثمانيين . وكان الشاه عباس قد منح «أنطون شارلى» توكيلاً عنه لعقد هذا الحلف، هذا التوكيل لم يكن له مثيل على الإطلاق فى تاريخ العالم السياسى، وفى تاريخ مهمات السفراء ومأمورياتهم .

فقد كتب الشاه عباس فى وصفه لـ «أنطون شارلى»: «إن علاقة هذا النبيل معى كانت منذ أن وجد على أرض إيران، حيث كنت أتناول الطعام معه كل يوم فى طبق واحد، ونشرب معًا كالإخوة فى كأس واحدة».

وعندما غادر شارلى إصفهان متوجهًا فى سفارته إلى أوروبا، كان الشاه عباس قد أعطاه ختمه الذهبى وقال له : «كل ما تختمه بهذا الختم سوف يكون موضع قبول وموافقة منى». وبالقطع لم يعد هذا الأخ الروحى للشاه عباس ونديم شرابه وجليس سفرته إلى إيران من هذه المهمة مطلقًا كى يقدم للشاه عباس تقريرًا عن مهمته التى كلفه بها وعما فعله بالهدايا الثمينة التى كان الشاه عباس قد أرسلها معه إلى ملوك أوروبا وأمرائها، ولم يتضح مطلقًا ما الذى فعله فى هذه المهمة . فقد روى التاريخ أنه قد لجأ فى النهاية إلى دوق البندقية![٣٣] .

وكان «بنده شاه ولايت، عباس» - عبد ملك الولاية، عباس- مثلما كان يسمى نفسه- قد أصدر أمرًا ملكيًا جديرًا بالقراءة نصه كما يلى : «صدر الأمر الهمايونى الملكى . . . بأن يعلم ملاذ الإمارة وزبدة السلاطين المسيحية وأسوة الولاة الإفرنجية، الأمير الأعظم «أنطون شارلى» المشمول بالعناية الشاهانية والألطاف والمجاملات الملكية، بأنه قد مر الآن عدة سنوات على رحيله من حضرتنا إلى بلاد الفرنجة، ولم يصلنا أى خبر عنه أصلاً، ولم يرسل إلينا أى معروض يتضح فيه ما فعله فى بلاد الفرنجة حتى يكون لدينا علم بما فعله هناك، وحتى نعلم ما آل إليه حاله ؟».

من الطبيعى جدًا أن تسفر مثل هذه السياسة والإدارة عن اضطراب شديد فى العلاقات الخارجية، وتؤدى إلى تلاعب الدول الأوروبية بإيران، وتوريطها فى حروب مستمرة مع جارتها المسلمة تركيا العثمانية. ومن المؤكد أن ثمة محاولات وجهودا أخرى كانت تبذل فى الناحية الأخرى لتأزيم العلاقة بين تركيا العثمانية وإيران الصفوية كى تتحول هذه العلاقة إلى صراع مستمر وأزمات متتابعة. فعندما أراد «أنطون شارلى» أن يلتقى دوق البندقية، امتنع هذا الدوق عن لقائه، وقال إنه يريد أن يلتقى السفير العثمانى، وإنه بصدد إجراء محادثات سلام وصلح مع العثمانيين !

وهنا نجد أن «برنارد لويس» لا يشير مطلقًا لا من قريب ولا من بعيد لطبيعة هذه المأمورية والمهمة التى كلف بها «أنطون شارلى» والنهاية التى انتهت إليها هذه المهمة. وإذا لم يكن القارئ على معرفة واعية بتاريخ إيران ومهمة الأخوين شارلى، فسوف يخضع حتمًا لتأثير رواية «برنارد لويس» لهذه الأحداث والوقائع التاريخية. فـ«لويس» يشير إلى أنه بعد إعادة بناء الجيش الإيرانى وتسليحه فى عصر الشاه عباس تحت إشراف

الأخوين شارلى وعدد آخر من الخبراء الأوروبيين، وقعت فترتان أخريان من الحروب بين إيران الصفوية وتركيا العثمانية، الأولى بين سنتى ١٦٠٢-١٦١٢م، والثانية بين سنتى ١٦١٦-١٦٢٧م، حيث دارت خلالهما حروب مستمرة بين الدولتين، استطاع الإيرانيون خلالها أن يحرزوا نجاحًا فى مواضع كثيرة، مما اضطر معه الأتراك العثمانيون إلى أن يعقدوا الصلح مع النمسا فى سنة ١٦٠٦م(٣٤).

إن خلق الأزمات وتهيئة المجال أو إيجاد أسباب مزمنة لنشوء الصراع والخلافات بين الدول الإسلامية، ليعتبر أمرًا قد خطط له بدقة منذ زمن ليكون بمثابة خطة طويلة المدى استمر تنفيذها خلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى والنصف الأول من القرن العشرين.

ومثال ذلك ما نجده من خلافات على الحدود وسيادة الأراضى الحدودية بين إيران والعراق، وبين العراق وتركيا، وبين السعودية واليمن، وقضية الصحراء فى الشمال الإفريقى، وبين مصر والسودان، وغيرها من الخلافات والصراعات التى كانت دائمًا بمثابة برميل البارود الذى جهز ليتم تفجيره وقت الحاجة. وبديهى أن تكون ادعاءات الملكية على الأراضى الحدودية بالنسبة لكل دولة من هذه الدول تجاه الأخرى مدعاة لإثارة النزعة الوطنية والحمية السياسية والاجتماعية لدى كل دولة تجاه الدولة الأخرى. فكلتا الحربين اللتين قامت بهما حكومة البعث العراقية خلال العقدين الأخيرين ضد إيران وضد الكويت، أتاحتا الفرصة عمليًا لأمريكا وبريطانيا وحلفائهما للوجود عسكريًا فى المنطقة واحتلال الأراضى الإسلامية، كانتا بسبب ادعاءات حكومة البعث العراقية لملكيتها لأراضٍ فى إيران، وملكيتها للكويت بأكملها.

فكيف استطاع الغرب، وعلى الأخص إنجلترا وفى بعض المواضع فرنسا، كيف استطاع الغرب برسمه للخريطة الجغرافية وترسيم الحدود السياسية بين الدول الإسلامية أن يخلق مثل هذه المواجهات ومجال الصراعات بين هذه الدول؟

وللرد على هذا السؤال نقول فى عبارة واحدة إن مثل هذا الأمر قد تحقق بسبب تخلف المسلمين خلال قرون الركود والتراخى والغفلة.

إنها المسألة نفسها التى يشير إليها «برنارد لويس» مرارًا وتكرارًا فى كتابه «كيف بدأت المتاعب؟ - What Went Wrong» والذى يؤكد فى نتيجته وخلاصته

على أن «الفقر والضعف والغفلة والجهل»[٣٥] هى التى أتاحت الفرصة للغرب لأن يجعل من بلاد المسلمين بمثابة فناء خلفى له يعبث به .

ومثلما نرى فى أيامنا هذه من أن جزءًا من أراضى المسلمين قد تعرض بالفعل لاحتلال مباشر ، وأن ثمة أجزاء أخرى، برغم عدم تعرضها للاحتلال المباشر وبصورة رسمية وواضحة، فإنها تعمل كمراكز للقيادة العسكرية والدعم اللوجيستى لأمريكا وبريطانيا فى المنطقة، حتى إن كثيرًا من المطارات فى الدول الإسلامية فى المنطقة تقوم بإدارتها أجهزة الاستخبارات الأمريكية وأجهزة استخبارات حلفائها الغربيين . هذا الوجود بلغ من الاتساع والعمق مبلغًا جعل وزير خارجية إحدى الدول العربية فى المنطقة يعلن بكل صراحة أن هذا الوجود والاحتلال أدى إلى تحقيق الاستقرار والثبات فى المنطقة، مما يعنى الاعتراف رسميًا بهذا الاحتلال وإعطائه صفة الشرعية .

فأى سبيل وأى حيلة أمام المسلمين مع مثل هذه الأوضاع؟ أهو القبول بالأمر الواقع والتسليم أمام الإدارة الأمريكية والغربية مثل القبول بإسرائيل كأمر واقع ومسلم به، حيث يتم التأكيد دومًا منذ عدة عقود على أن المسلمين والعرب ليس أمامهم من سبيل سوى الاعتراف رسميًا بإسرائيل، وأن إسرائيل لها كل الحق فى أن تفعل ما تشاء اعتمادًا على قوتها العسكرية والدعم والتأييد الدائم الذى تتلقاه سياسيًا واقتصاديًا وإعلاميًا، وكذلك على عدم إبداء أى اعتبار لقرارات مجلس الأمن والجمعية العمومية لمنظمة الأمم المتحدة وما تصدره من بيانات .

فمع مثل هذه الأوضاع أصبحنا نشاهد أمثال «برنارد» و«فالاتشى» وغيرهما، وقد اشتعلت قلوبهم حقدًا على المسلمين والإسلام، وأخذوا يصورون وجه الإسلام الجهادى على أنه مساو للإرهاب، ويفسرون أى نوع من المقاومة والكفاح على أنه من جنس العمليات التى يقوم بها تنظيم القاعدة . ولا يمر يوم إلا ويصدر فيه كتاب جديد ضد الحركات الجهادية وحركات المقاومة الإسلامية، دون أن ترد به أى إجابة عن السؤال الأساسى المطروح : لماذا تتشكل مثل هذه الحركات الجهادية؟ولماذا تقوم بما تقوم به من مقاومة وكفاح؟ ولماذا يضحى الشباب المسلم الأفغانى والفلسطينى والعراقى والكشميرى بنفسه وروحه ؟

أى سبيل وأى حل بقى أمام الفلسطينيين لإثبات هويتهم سوى نهوضهم للمقاومة الدينية والقومية والوطنية؟ وهل كل عمليات المقاومة، التى نشاهدها فى العراق والتى لا يمر يوم تقريبًا إلا ونشاهد عمليات مقاومة ضد القوات الأمريكية والبريطانية، هل كل هذه العمليات التى تنتهى غالبيتها باستشهاد المناضلين والمجاهدين أو جرحهم أو أسرهم، تقوم بها بقايا حكومة صدام أو التابعون لتنظيم القاعدة ؟

إن المقاومة تعتبر ملازمة للاحتلال. ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن تتعرض أرض لاحتلال الغير وننتظر ألا يحدث فيها مقاومة وكفاح ضد هذا الاحتلال .

من هذا المنطلق يمكننا أن نفسر الاتجاه الأصلى والأساسى لـ «برنارد لويس» فى كل كتبه ودراساته وأحاديثه المتعددة ونحلله على أنه محاولة لنفى نظرى لجذور المقاومة وأصولها، نفى الأسس النظرية للإسلام، تلك الأسس التى تعد السند الوحيد والمرجع الأساسى للمسلمين فى مواجهتهم وكفاحهم ضد المحتلين. ومما لا شك فيه أن الفكر الدينى قد تصاحب معه، ليس فقط فى الإسلام، بل فى جميع الأديان، وجود مفاهيم متطرفة من جانب بعض الفرق، فالعقيدة المسيحية تشتمل أيضًا على اتجاهات متطرفة، كذلك الأمر لدى اليهود، وأيضًا فى الهندوسية مثلما هو موجود بين المسلمين، إلا أننا نجد «لويس» ومن يسير فى ركابه من المفكرين يعمدون أولاً، إلى إلحاق هذه الاتجاهات المتطرفة وإلصاقها بجميع المسلمين، كما يعمد ثانيا إلى تفسير هذه الاتجاهات المتطرفة على أنها مساوية للإسلام .

لكن الواقع والحقيقة التى تنجلى اليوم فى وضوح أمامنا نحن المسلمين، **هى أنه لن** تكون لنا مكانة ودور مؤثر فى عالمنا هذا إلا بالاعتماد فقط على مقاومة الاحتلال، ونهضة المسلمين ومقاومتهم الوطنية، وهو بالتأكيد الشرط اللازم **لبقاء المسلمين** ووجودهم على الساحة العالمية. لقد استطاع الغرب، اعتمادًا على **قوته العسكرية** وقدرته الاقتصادية والسياسية والإعلامية، أن يفرض سيطرته على **العالم بأسره**، بما فيه العالم الإسلامى . ودون الوصول إلى هذه الأسس والمبادئ التى تستند **إلى القوة**، لا يمكن أبدًا الاعتماد على هذه الحركات الحماسية للمقاومة. وعلينا كذلك **أن نسعى** فى طريق ثالث يؤدى إلى تنمية المسلمين وتقدمهم فى المجالات العلمية والتقنية،

ويحافظ أيضًا على مشاعل هذه المقاومة مستمرة فى تأججها واتقادها . ودراسة مثل هذا الطريق الثالث وبحثه وتفصيله يحتاج منا إلى كتاب آخر وفرصة أخرى .

لقد حاولت فى هذا الكتاب أن أبين فقط تفصيلات ذلك المخطط الغربى وأسسه ومبانيه، وهو المخطط الذى وضعه الغرب منذ زمن بعيد لمواجهة العالم الإسلامى. وحاولت كذلك أن أفضح ذلك المنهج المتحيز المنحرف الذى اتبعه «برنارد لويس» فى دراساته وأبحاثه ونظرياته كمؤرخ ومفكر يتمتع بتأثير بالغ فى الغرب .

وما توفيقى إلا بالله .

***

obeikandl.com

الهوامش

١- الدكتور مازن بن صلاح المطبقاتى، الاستشراق والاتجاهات الفكرية فى التاريخ الإسلامى، الرياض، مطبوعات مؤسسة الملك فهد الوطنية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص١٥ .

٢- نفسه ، ص١٦ .

3- Edward Said , Orientalism, New York, Pantheom Books,1978, p:314,315 .

4- Ibid, p: 316-317 .

٥- نشرت هذه المقالة فى دورية «Counterpunch» بتاريخ ٢٨ من يونيه ٢٠٠٣م . انظر :

http; www. counterpunch . Org/alam 0628 2003. htm 1

٦- فيما يتعلق باستخدام رمز الناقة للتهوين من شأن الثورة والشعب .

7- Lewis and Islamic Studies, Sulayman Naying and Sauneet Abdo Rabo, Assesment in Orientalism and Islamists Bratheboro, U.S.A1984 .

٨- الاستشراق والاتجاهات الفكرية فى التاريخ الإسلامى، ص ١٧، ١٨ .

9- T.B. Irving, book revien of the terms of Islam by Bernard Lewis in Muslim World Book Review (leicester) Vol : 6, No: 1, Authum,1985 .

وأيضًا، الاستشراق والاتجاهات الفكرية فى التاريخ الإسلامى، ص١٨

10- T.B . Irving . (Pushing the US Toward a War against Islam) in impact international, 27 july, 9 Aaugust 1990.

11- Bernad Lewis, The Political Language of Islam, The University of Chicago Press , 1999.

openkanal.com

والترجمة الفارسية لهذا الكتاب :

برنارد لويس، زبان سياسى إسلام، ترجمة : غلام رضا بهروزلك، قم، مركز انتشارات دفتر تبليغات إسلامى، ١٣٧٨هـ. ش .

12- Ibid, P:71-72.

١٣- فيما يتعلق بهذا الادعاء، قمت بدراسة تفصيلية للآيات المعروفة بالغرانيق، وذلك فى كتابى «نقد توطئة آيات شيطانى» - نقد مؤامرة الآيات الشيطانية- وأثبت زيف هذا القول وتدليسه. انظر ص ٥٣ ـ ٦٨ من الكتاب المذكور.

14- W. Montgomery Watt, Muhammad: Prophet and Statesman, Oxford,1961,1,pp:39-40.

15- Charles Torrey, The Jewish Foundation of Islam (New York-1933) p:39.

١٦- القرآن الكريم، سورة الأعراف: ١٥٧، الجمعة: ٢، العنكبوت، ٤٨: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ وأيضًا سورة الشورى: ٥٢ .

١٧- الاستشراق والاتجاهات الفكرية، ص ١٣٨ .

١٨- شمس الدين الذهبى، السيرة النبوية، تحقيق عمر عبد السلام التدمرى، بيروت، دار الكتاب، ١٤١٥هـ، ص ٨٥-٩٤ .

١٩- الاستشراق والاتجاهات الفكرية، ص١٣٨ .

٢٠- نفسه، ص ١٤٤ .

٢١- أبو الأعلى المودودى، خلافت وملوكيت، لاهور، ١٩٨٣، ص١٨٧-٢٠٩

٢٢- زبان سياسى إسلام، ص ٥٠، ٥١ .

٢٣- نفسه، ص ٣١ .

٢٤- جلال الدين السيوطى، الإتقان فى علوم القرآن، بيروت، دار ابن كثير، ١٤٠٧هـ، ج١، ص ٤٣٧ .

٢٥- نفسه، ص٤٤٤ .

٢٦- نفسه، ص ٤١٧ .

٢٧- الاستشراق والاتجاهات الفكرية، ص ١٥٣-١٥٥ .

٢٨- نفسه، ص ٢٦٣ .

٢٩- نفسه، ص ٢٧٤ .

٣٠- مثل الكتابين التاليين :

1 -The Jews of Islam, (Princeton University Press).1986.

- Semites and Anti Semites, New York, 1986 .

31- Bernard Lewis ,Islam and the West, Oxford University press, 1993.

ثمة كتاب آخر بهذا العنوان نفسه «الإسلام والغرب» كتبه نورمان دانيال وبياناته كالتالى :

Norman Danial : Islam and the West, The Making of an Image, Oxford, 2000 .

وقد عرّفت بهذه الكتب لأن أحد القراء المحترمين كان قد اعترض على عنوان «الإسلام والغرب» فى هذه السلسلة من المقالات والأبحاث، فأردت فقط أن ألفت النظر إلى أن استخدام مثل هذا العنوان قد ظهر فى كتب أخرى سابقة، وإلا فإن الأبحاث والمقالات حول موضوع الإسلام والغرب تزيد عن الحصر .

32- What Went Wrong?, P:19.

٣٣- دكتور أحمد تاج بخش، تاريخ صفويه، شيراز، انتشارات نويد، ١٣٧٢، ص٥٦٠-٥٦٥ .

34- What Went Wrong ?, P:13 .

35- What Went Wrong?, P:168 .

***